



ERT

إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف

فكتور سحاب

دكتور دولة في التاريخ - الجامعة اللبنانية
باحث زائر في جامعة جورجتاون - واشنطن
حائز على منحة فولبرايت للأبحاث

Is
Der
Tasi



المركز الثقافي العربي



كومبيو نشر
للدراسات والاعلام ونشر والتوزيع

* إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف

* تأليف فكتور سحاب

* الطبعة الأولى، أيار/مايو 1992

* جميع الحقوق محفوظة

* الناشر: كومبيونشر والمركز الثقافي العربي

■ كومبيونشر: بيروت - فندق البوريفاج - ص.ب. 4006/113 ت: 352826 - فاكس: 271753 - LE 821862

■ المركز الثقافي العربي ● بيروت - ص.ب. 113/5158 ت: 352826 - نلكس NIZAR 23297LE ● الدار البيضاء - ص.ب. 4006 (الاجناس) - فاكس - 305726 - ت: 271753

الاهداء

الى عرفان شهيد
عربون محبة وامتنان

مقدمة

- أ- توسّلاً إلى تحقيق بعض أغراض هذا المبحث، يُلاحظ ما يلي:

١- تتوسط الجزيرة العربية بحرين عظيمين هما المحيط الهندي من الجنوب والشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الشمال والغرب. كذلك تتوسط ثلاث قارات كانت مهد الحضارات منذ القدم ولا تزال محطّ نشاط إنساني حضاري وسياسي وتجاري كبير، هي آسية شرقاً وإفريقية غرباً وجنوباً وأوروية غرباً وشمالاً. ويرى باحثون أنه كانت «الجزيرة العرب على الدوام مكانة لدى بقية العالم، يَضمُّنها وضعُّها الجغرافي [هذا]، كفاصل بين بحرين. إذ يختلف مناخ البلاد المطلّة على المحيط الهندي وما والاها شرقاً حتى الصين، اختلافاً كاملاً عمّا في حوض البحر المتوسط. ولذا اعتدّت منتجات شرق إفريقيا والهند وإندونيسية والصين نادرة في الغرب، فارتفعت أسعارها. . . وألقت بلاد العرب وسكانها اليونان والرومان، وكذلك وقعت جزيرة العرب [في الوقت ذاته] عند عتبة الهند والصين، وأنتجت بضائع غلا ثمنها في أسواق الغرب. . . وكان الاقبال على اللبان والمر والأفاويه هو الأشد»^(١) ولم تكن تلك حالة معزولة في التاريخ. فكلّما كانت البلاد الواقعة إلى الجنوب والشرق من البحر الأحمر تنتج منتجات تحتاج إليها البلاد الواقعة إلى الشمال والغرب من البحر الأحمر حاجة ماسّة، كانت منطقة الجزيرة العربية وما صاقبها من خطوط بحرية عبر البحر

(١) Husein, Raef T.A.: The Early Arabian Trade and Marketing, *Islamic Quarterly*, vol. 30 (1986), p.109. وانظر أيضاً: SANLAVILLE, Paul: Des Mers au Milieu du Désert, Mer Rouge et Golfe Arabo-Persique, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières, I*, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon 1988; p.10

الأحمر أو عبر الخليج ونهر الفرات والصحراء السورية، تتحول إلى موضوع صراع دولي بين الدول الكبرى ذات المصلحة في تجارة هذه المنتجات. ذلك كان الحال عندما كانت الأفويه والبخور والفضة والحريز وما عداها، مواد «استراتيجية» بمقاييس عصرها. وذلك هو الحال اليوم بعد ظهور النفط شرق البحر الأحمر. ومثلما تتأثر أسعار النفط في عالمنا اليوم بالأحداث، صغیرها وكبیرها، كانت تجارة منتجات الشرق تتأثر في الزمان الغابر. حتى قيل إنه لو: «جاءت الأنباء تخبر عن عاصفة هوجاء في المحيط الهندي، لارتفعت الأسعار ارتفاعاً مذهلاً»^(١)، في أسواق الغرب القديم.

٢- في وقت ما، قبل ظهور الاسلام، تسلّمت قريش ومدينتها مكّة المكرمة، أزمة تنظيم التجارة الدولية بين الجنوب والشرق وبين الشمال والغرب. وكانت تحتاج من أجل بلوغ غايتها هذه إلى جمع جهد القبائل العربية الراغبة في استثمار أموالها في هذه التجارة، وإلى تحييد القبائل التي قد ترغب في غزو القوافل التجارية. كذلك كانت تحتاج إلى دعم زعامتها السياسية والاقتصادية بالوسائل المتاحة، ومنها ضمان نوع من الولاء الديني والعقدي لقريش ولمكة، ومنها أيضاً إشراك ما أمكن من قبائل العرب في المواسم والأسواق المتنقلة، حيث يجتمع عامة عرب الجزيرة على مكاسب هذه التجارة، ويتبادلون العلاقات الاجتماعية ويتبارون في محافل الأدب والشعر. فكان جرّاء هذا المشروع الجماعي الخطير، أن أخذت تتجمع من حول هذا المشروع ملامح نزوع وحدوي في مختلف وجوه الحياة.

إذا انطلقنا من هذا التصوّر المبدئي فيمكننا أن نلج موضوع «إيلاف قريش»، وفي ذهننا أن الإيلاف كان تطوراً بالغ الخطورة على صعيدين: أولهما، صعيد خارجي يختصّ بتسلّم العرب أزمة الخطوط التجارية الدولية المارة عبر ديارهم، بين حوضي البحرين العظيمين واستعادة العرب لدور الوساطة التجارية، وهو دور تؤهلهم له مكانة بلادهم في الجغرافية السياسية للعالم

(١) Husein, ibid, p 114

«القديم»، وثانيهما، صعيد داخلي يختصّ بالبذور التوحيدية التي تنشأ من مثل هذا الالتفاف حول المشروع العربي الواحد واحتمالات تطوير أثره الفاعل في كل الميادين السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية. وهما أمران يجعلان للإيلاف وفهمه مكانة عظيمة في وعي العرب لتاريخهم الغابر، وفي فهم كثير من حقائق الجغرافية السياسية العربية، التي بقيت لنا منها اليوم عناصر مما سلف من أوضاع، وفي الأيحاء بالسلوك المحتمل الذي يستطيع العرب اليوم أن يسلكوه، لا في استعادة أزمة دورهم في منطقتهم حيال قوى الخارج فقط، بل في الاهتداء إلى مشروع يجمعهم على مصلحة مشتركة ذات أثر توحيدي متعظم يؤدي إلى التفاهم حول هذا المشروع، ويدعم في الوقت نفسه قدرتهم على المبادرة في ديارهم.

يقول الهمداني: «لولا أن الله عزّ وجلّ خصّ بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرّب أحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي، وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء. إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات، ومنع عن الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا، ويستمتع قوم بأمتعة قوم^(١). ولعل أعظم «نوع من الخيرات» اختصّ به العرب هو توسطهم هذا بين البحار والقارات، فتوسطوا في التجارة والثقافة والحضارات، وكانوا وسيلة اتصال بين مختلف الأمم، فبلغوا في هذا ما لم يبلغه كثير من الأمم غيرهم. ولذا يصح فهم العرب للإيلاف فهماً للذات وللمكانة في العالم وللعلاقة بمن عداهم من أمم.

* * *

ب - ثمة من يعتقد أن ظهور الاسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف، جاء من فراغٍ سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي كامل. إلا أن عدداً من الباحثين في

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ، ص ٢٥١. وانظر حمور، عرفان محمد: أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥.

دراسات مختلفة، أثبتوا بجهود دؤوبة، ولو أنها موزعة مبعثرة، أن القرن الذي سبق ظهور الاسلام، كان، على الأقل، حافلاً بأحداث غاية في الخطورة في منطقة الحجاز وأطرافها. وهذه الجهود، على كونها تستحق الثناء والتقدير، افتقرت عموماً إلى الرؤيا التاريخية الشاملة والنظرة العامة إلى المسار الذي درجت فيه هذه الأحداث الجسام، في الاتجاه الذي تَوَجَّه ظهور الاسلام فيما بعد. فجاءت وفرة التفصيل والوغول في الجزء راجحةً على مساعي البحث في استنباط الرؤيا الشاملة ضمن المسار التاريخي العام.

ولقد تعددت تعريفات العلماء «للايلاف». ورأى عرفان شهيد أن الكلمة اكتسبت معناها المخصوص بعد الاسلام، فقال محمد بن حبيب في «المحبر» إن الايلاف اليهود. أما الطبري فقال إنه العَصَم أي المعاهدات التي ضمنت في جانبها العملي تسيير رحلتي الشتاء والصيف. وفيما تناول محمد حميد الله في مقالته «الايلاف» سنة ١٩٥٧، على مدى ثماني عشرة صفحة مسألة نشوء مكة ومحاولة معرفة الملوك الذين عقّدت قريش معهم المعاهدات لتجارتهما، انصرف اهتمام ابراهيم بيضون في أربع عشرة صفحة إلى دراسة السلطة السياسية التي أدارت «الايلاف»، عبر دار الندوة، وما اعترى هذه السلطة السياسية في مكة من وهن وواجهها من عقبات واضطرابات. أما ر. سيمون فصرف جل اهتمامه إلى الناحية التجارية والأشهر الحرم. وكتب صالح درادكة في مقالته «إيلاف قريش» سنة ١٩٨٤ رؤياه في النظر إلى «الايلاف». وخصّص سعيد الأفغاني فصلاً من كتابه «أسواق العرب» بالايلاف. إلا أن هذا المشروع، الاقتصادي في الأصل، يظل في حاجة إلى دراسة شاملة تتناول جميع تفرعاته وآثاره الخطيرة في تطور المسار الوحدوي في الحجاز، وفي تسيير التجارة الدولية عبر الجزيرة العربية وأطرافها قبيل الاسلام.

إن الايلاف كان في الأصل مجموعة من العهود السياسية التجارية، غرضها، فيما تكاد تُجمع عليه المصادر، ضمان قيام قريش بالتجارة عبر جزيرة العرب، من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وهو ما سنصطلح على تسميته: تجارة الشرق أو التجارة الشرقية، تيسيراً للعبارة. لكن الايلاف

كان، في سياقه التاريخي، العمود الفقري الذي قامت عليه حركة تاريخية تعدت النطاق التجاري. فإذا كان الايلاف أولاً هو البديل الذي وفّره القبائل العربية البدوية، للحلول محل الخطوط التجارية المضطربة بين الشرق والغرب وبين الجنوب والشمال، عبر البحر الأحمر والخليج وامتداداتهما الصحراوية البرية، فإن الايلاف أيضاً أنشأ من حول المشروع التجاري نوى علاقات دينية وسياسية ولغوية واجتماعية بين هذه القبائل العربية، مهّدت لتوحدّها شبه التام لدى ظهور الاسلام.

إن هذه الحركة التاريخية، بمظاهرها المختلفة، وبتحركها في سياق الصراع الدولي بين القوى الكبرى في ذلك الوقت، وبخاصة دولة الساسانيين الفارسية، ودولة بيزنطة الرومانية، هو موضوع الدراسة في هذه الأطروحة: «إيلاف قريش». وهي أطروحة آمل أن تسدّ فراغاً في هذا المجال المهم من مجالات التاريخ العربي غير المستقصاة، وأن تلقي ضوءاً على أهم الأحداث التي كان شأنها إعداد القبائل العربية والساحة السياسية للمآل التوحيدي لدى ظهور الاسلام.

يقول شبرنغر إن التجارة الدولية ظهرت لدى العرب قبل الميلاد. وأهلهم لهذه المهمة موقع بلاد العرب الوسيط والبحر الأحمر والخليج، وخصائص الجمل ونوع السلع التي كان يحتاج إليها عالم البحر المتوسط (العالم القديم)، من منتجات شواطئ الهند والصين وإفريقية، ومن منتجات العرب أنفسهم. ولذا كان موقع بلاد العرب الوسيط هذا مجلبة لأطماع القوى الكبرى. وأول ما ظهر من الاهتمام الأوروبي بطرق التجارة العربية على الأقل، ما بدا من الاسكندر المقدوني الذي أطلّ على المحيط الهندي في فتوحاته. لكن سقوط السليوقيين وانحسار الحكم الاغريقي أعاد الطموح الهليني ثم الروماني إلى حدود الاكتفاء بالبحر الأحمر منفذاً إلى الشرق، حتى كانت محاولة الامبراطور تراجانوس (Trajanus) الفاشلة في الخليج، أوائل القرن الميلادي الثاني. وقد دارت حروب الاغريق مع الفرس، ثم رومة مع الفرس، ثم بيزنطة مع الفرس قروناً طويلةً حول محاولة السيطرة على الطرق التجارية عبر بلاد العرب. ويبدو هذا جلياً من